الفصل السادس

ألمانيا إلى أين المصير؟

كانت المشكلة الملحة التى فرضت نفسها على الحلفاء المنتصرين هى مصير ألمانيا، وكان الأقطاب الثلاثة: تشرشل وروزفلت وستالين قد توصلوا إلى اتفاق مؤقت فى مؤتمر يالتا (فبراير ١٩٤٥) حول تقسيم ألمانيا. وعندما انتهت الحرب نهائيًا فى صيف ذلك العام، جاء دور الاتفاق النهائى فى مؤتمر بوتسدام.

وفى هذا المؤتمر الأخير اتفق الأقطاب (هارى ترومان وستالين وأتلى، على أن تمتد الحدود الشرقية لألمانيا على طول الخط الذى يوازى نهرى الأودر Oder والنيس Neisse ويستولى الاتحاد السوفيتى على نصف بروسيا الشرقية، وتستولى بولندا على دانزج وسيليزيا العليا والسفلى وبراندبرج الشرقية ومعظم أراضى بوميرانيا والنصف الجنوبى من بروسيا الشرقية، وتعاد أرض السوديت إلى تشيكوسلوفاكيا. كما أعيدت اللورين والألزاس إلى فرنسا، ومالمدى وبوين إلى بلجيكا.

وقسم المنتصرون ألمانيا أو ما تبقى منها إلى أربع مناطق احتلال تبعا

للوجود العسكرى فى كل قطاع، واحتل الأمريكيون القطاع الجنوبى، واحتل السوفيت القطاع الشرقى، والفرنسيون القطاع الغربى، واحتل الانجليز القطاع الشمالى. أما العاصمة برلين التى كانت فى قلب القطاع السوفيتى، فقد اتفق الحلفاء على تقسيمها إلى أربع مناطق احتلال.

إلا أنه بعد فترة قصيرة، اندمجت القطاعات والأمريكية والإنجليزية والفرنسية فى قطاع واحد، وأصبح هناك قطاع غربى تسيطر عليه الدول الغربية أى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وقطاع شرقى يسيطر عليه الاتحاد السوفيتى. ولكن السوفيت لم يكونوا سعداء بهذا التجمع الألمانى الغربى، لأنهم أدركوا بأن الألمان فى القطاع الشرقى (السوفيتى) سوف يشعرون بعدم الرضا لأن مواطنيهم فى القطاعات الغربية قد حققوا نوعا من الوحدة؛ لذلك وافق السوفيت فى ديسمبر ١٩٤٦ على الاشتراك فى مناقشة بعض المشروعات الرامية إلى خلق وحدة اقتصادية تشمل مناطق الاحتلال، إلا أن التوتر ظل مستعرا بين المعسكرين، وباءت هذه المحاولة بالفشل.

ومع أن الحلفاء الغربيين كانوا يتبعون سياسة التظاهر بالعطف على الشعب الألمانى، ومحاولة صلاح اقتصاده المنهار، إلا أنهم حرصوا أشد الحرص على إتباع سياسة الحزم فى محو كل أثر للنازية، والقضاء على أية حركة تهدف إلى بعث الروح العسكرية فى البلاد واحتفظت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى القطاع الغربى بحق الاشراف على نزع السلاح ومسألة التعويضات والشئون الخارجية.

وقام الحلفاء بمحاكمة اثنين وعشرين من كبار زعماء النازية فى الفترة من نوفمبر ١٩٤٥ وأكتوبر ١٩٤٦، وحكم على اثنى عشر منهم بالاعدام

وعلى سبعة بالسجن لمدد مختلفة وأفرج عن ثلاثة.

وسار كل قطاع من قطاعى ألمانيا فى اتجاه خاص تبعا لعلاقة القطاع الغربى بالحلفاء الغربيين وعلاقة القطاع الشرقى بالاتحاد السوفيتى.

وفى سبتمبر ١٩٤٩ انتخب الدكتور تيودور هيس أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية (القطاع الغربى) واشتملت هذه الجمهورية على أكثر من نصف مساحة ألمانيا قبل الحرب، وعلى مايقرب من ثلاثة أرباع سكان القطاعين الغربى والشرقى. واختارت حكومة ألمانيا الاتحادية مدينة بون الجامعية لتكون عاصمة للبلاد، وأنشىء فيها برلمان الاتحاد بموجب دستور جديد.

واشتدت الحرب الباردة بين الكتلتين، مع قيام حكومة ألمانيا الاتحادية وضع الحلفاء لهذه الدولة نظاما لايقره الاتحاد السوفيتى، وهو إحكام الصلة بين مناطق الاحتلال الغربي (ألمانيا الاتحادية) وبرلين الغربية، وسريان عملة ألمانيا الاتحادية فى ذلك الجزء من برلين، ولذلك قرر الاتحاد السوفيتى فرض الحصار على برلين، وقطع طرق الاتصال بين سلطات الاحتلال الغربى وبرلين حتى لا تنجح إقامة دولة ألمانية غربية مستقلة معادية للاتحاد السوفيتى. ولذلك قطعوا الطريق الذى تستخدمه السلطات الغربية للوصول إلى برلين. وحالوا دون وصول الضروريات كالأغذية والغاز وغيرها، والتى كانت تصل بانتظام من القطاع الشرقى للعاصمة الألمانية، والذى يحتله السوفيت.

ولم تلجأ سلطات الاحتلال الغربية إلى استخدام القوة فى فتح الطريق، بل فضلت استخدام الطريق الجوى لخرق الحصار السوفيتى، وقد نقلت الطائرات الأمريكية والبريطانية الحربية فى عامى ١٩٤٨،

١٩٤٩ نحو مليون ونصف مليون طن من المواد الغذائية والاحتياجات الضرورية إلى المناطق المحاصرة، مما اضطر السوفيت إلى إنهاء الحصار فى مايو ١٩٤٩.

وهكذا قامت دولتان المانيتان ألمانيا الديمقراطية وألمانيا الاتحادية سنة ١٩٤٩، وكلاهما تتبع أحد العملاقين الكبيرين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وسارت كل من هاتين الدولتين فى طريق مختلف، تمليه عليهما ظروف التبعية وظروف الاحتلال.

واستمرت الحرب الباردة قائمة بين المعسكرين تهدأ حينًا وتستعر أحيانا.

ففى يونيو ١٩٦١ جتمع الرئيس الأمريكى كنيدى مع الزعيم السوفيتى خرشوف فى فيينا، وصرح خرشوف لكنيدى بأن المشكلة الألمانية أصبحت على شفا الانفجار، وقد تناقضت وجهات النظر الأمريكية والسوفيتية بشكل حاد، ولكن هذا اللقاء فتح قنوات الاتصال بين الطرفين على أية حال، غير أن هذا لم يمنع كنيدى من أن يعلن التعبئة الجزئية بمجرد عودته إلى واشنطن، كما قام بأعمال التدعيم العسكرى لمختلف القواعد الأمريكية فى غرب أوربا بسبب تهديدات خرشوف حول برلين. كما أعلن خرشوف بالمقابل وقف أى تخفيضات فى القوات المسلحة وزيادة فى الميزانية العسكرية بمقدار الثلث.

كما أثار خرشوف من جديد مشكلة برلين فى جنيف فى نفس العام (١٩٦١) واقترح أن القوات التى ترابط فى برلين، يجب أن تكون من الدنمرك أو النرويج، أو بلجيكا، أو هولندا، وكذلك من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، وأن تعمل هذه القوات تحت علم الأمم المتحدة، وهو

العرض الذى رفضته الولايات المتحدة فى الحال. ورد الاتحاد السوفيتى بأنه سيضطر إلى تسوية الوضع فى برلين بدون اشتراك القوى الكبرى وازدادت الأمور حدة حينما تدخل السوفيت فى مواصلات برلين الغربية، وبعد سلسلة من الاتصالات بين خروشوف وكيندى، أنهى خروشوف الموقف تماما حينما قام فى ١٣ أغسطس ١٩٦١ بفصل شطرى برلين بجدار كبير يقسم المدينة إلى قسمين وبشكل بدا نهائيا. وهكذا سار كل قسم من الدولة الألمانية التى كانت (موحدة) فى طريق خاص يختلف عن القسم الآخر فقد سارت المانيا الاتحادية على أسس النظام الرأسمالى السائد فى كل أوربا الغربية وسارت ألمانيا الديمقراطية على أسس النظام الاشتراكى كبقية دول أوربا الشرقية والراضخة تحت الهيمنة السوفيتية، وعسكرت قوات مسلحة من قوى الحلفاء فى ألمانيا الاتحادية وعسكرت القوات السوفيتية فى ألمانيا الديمقراطية وساد الاعتقاد بالقطيعة الدائمة بين الألمانيتين إلى أن ظهر على المسرح السياسى الزعيم السوفيتى جورباتشوف، ونادى بالإصلاح والتغيير.. بالبيريسترويكا. فما هى هذه النظرية الجديدة القادمة من موسكو؟

البيرويسترويكا هى الدعوة إلى التغيير وانتهاج سبل جديدة فى التفكير، ويعنى ذلك التغيير الشامل فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية، والحياة الثقافية.

ويمكن أن نحدد معالم الفكر الجديد فى الاتحاد السوفيتى، والذى انعكس بصورة واضحة على الكتلة الشرقية بصفة خاصة، بل على العالم كله بدرجات متفاوتة بصفة عامة يمكن أن يحدد هذا الفكر فى عدة أمور رآها جورباتشوف لازمة لإرساء قواعد هذا التغيير، والأمر الأول هنا هو

تأكيد أهمية التعاون الدولى، وهذا تفكير جديد، باعتبار أن التعاون من وجهة نظر الاتحاد السوفيتى، كان مقصورا على داخل الكتلة الشرقية والمجتمع الاشتراكى، وأنه لاتعاون مع «الذئاب الرأسمالية» حقيقة بدأ خرشوف فى بداية الستينات «التعايش السلمى» مع الغرب، ولكن لم يتقبل «الرفاق» فى الكتلة الشرقية والصين فى ذلك الوقت هذا الاتجاه بالقبول. كما أن جبال الجليد بين المجتمعين الرأسمالى والاشتراكى ذابت قليلا مع الوقت ووقعت زيارات بين الطرفين، وتأكدت هذه التهدئة بالوفاق السوفيتى الأمريكى الذى بدأ فى عام ١٩٧٢، ولكن البيريسترويكا أكدت على حتمية التعاون الدولى، وهذا هو الجديد، فالشرق لاينفصل عن الغرب بصرف النظر عن اختلاف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالكل يعيش فى عالم واحد ويواجه مصيرا مشتركا.

كما أن الأمر الثانى الذى تسعى البيريسترويكا إلى تحقيقه هو تحقيق الكفاءة الاقتصادية، وهذا الأمر مرتبط ارتباطا وثيقا بالأمر الأول فالتعاون الدولى - فى رأى جورباتشوف - أمر حتمى وكذلك فإن الكفاءة الاقتصادية ضرورة وإلا تخلف الاتحاد السوفيتى عن الركب، وهذه الكفاءة الاقتصادية تتطلب تعديلاً فى أساليب الإدارة وانفتاحًا واعترافًا بأوجه القصور، ومحاولة تلافى السلبيات المختلفة.

أما الأمر الثالث والمرتبط بالأمرين الأول والثانى والذى تسعى البيريسترويكا إلى تحقيقه فهو العمل على إضفاء مزيد من الديمقراطية.. وبطبيعة الحال فإن الحديث عن الديمقراطية لايعنى أنها شىء محدد المعالم، لأن الديموقراطية كلمة لها مفاهيم مختلفة بالنسبة للدول والمجتمعات،

وهناك الفروق الضخمة بين الكلمات والأفعال.. بين النظرية والتطبيق، ومع ذلك فإن البيريسترويكا بإعادة طرحها لقضية الديمقراطية يعيد للاشتراكية حيويتها، فالاشتراكية ليست مناقضة للديموقراطية وبالتالى يحاول جورباتشوف أن يعقد مصالحة بين الاشتراكية والديموقراطية.

إن هذه الأفكار الجديدة التى بثها الزعيم السوفيتى فى كتابه البيريسترويكا، لم تكن أفكارا فقط، أو دعوة خيالية،لأن الزعيم السوفيتى بدأ فى تطبيق آرائه «وسمح» لها بالانتشار داخل الكتلة الشرقية، وتأثرت تلك المجموعة بدرجات مختلفة، فإذا كانت الصين وألبانيا قد تقبلتا تلك الأراء بالصمت فى مرحلة، وبالهجوم الصارخ فى مرحلة أخرى، فان بقية العالم الاشتراكى لم يقف صامتًا ولا مهاجما فقد حوكم وأعدم الرئيس الرومانى شاوشيسكو بتهمة الفساد وتدمير الأمة،

أما فى المانيا الديموقراطية فقد تم إبعاد الزعيم هونيكر وأصدر العهد الجديد قرارا بمحاكمته، وإن كانت حالته الصحية قدلاتسمح بذلك.

ولكن ألمانيا الديموقراطية،لم تعتبر البريسترويكا فقط هى دعوة للتعاون الدولى لتحقيق الكفاءة الاقتصادية وإرساء قواعد الديمقراطية، بل أنها انطلقت من هذه المفاهيم العامة إلى هدف محدد.. وهو الحرية، حرية التنقل، وحرية الاتصال بالعالم عامة، وألمانيا الاتحادية خاصة.

وتلاحقت الاحداث بسرعة مذهلة، واستقالت حكومة ألمانيا الديموقراطية التى تضم أربعة وأربعين وزيرًا، وظهرت على السطح وجوه جديدة بعد سنوات طويلة من الرقابة وعدم التجديد.. ثم أعقب ذلك القرار الخطير المتمثل فى فتح الحدود مع ألمانيا الاتحادية، وهكذا تدفقت مجموعات كبيرة من الألمان الشرقيين عبر سور برلين الشهير الذى ظل

قائمًا لمدة ثمانية وعشرين عاما كحاجز خطير بين الألمانيتين وكعائق فى سبيل تلاقى الشعب الألمانى الواحد.

إن الحقيقة أنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لم تشهد أوربا حركة تنقلات واسعة من أوربا الشرقية فى اتجاه الغرب مثل هذه الموجة الأخيرة التى بدأت منذ شهر سبتمبر ١٩٨٩، وساعد على ذلك وبصفة أساسية أن قانون المانيا الغربية يضمن الجنسية الألمانية (الغربية) لكل الألمان سواء كانوا مواطنى ألمانيا الديموقراطية أو من الأقليات الألمانية المنتشرة فى دول أوربا الشرقية، وهناك من يتوقع أن يصل فى العام الحالى (١٩٩٠) نحو ٣٠٠,٠٠٠ ألمانى من أوربا الشرقية إلى ألمانيا الاتحادية لأن القانون يوفر للاجئين المنحدرين من أصول ألمانية معاملة خاصة بالنسبة للسكن والعمل، وظاهرة الهجرة من ألمانيا الديمقراطية إلى المانيا الاتحادية تعود إلى عام ١٩٤٩ حين أنشئت دولة ألمانيا الديمقراطية، واستمرت الهجرة إلى الغرب حتى إقامة سور برلين سنة ١٩٦١.

ولكن الجديد فى الأحداث الأخيرة أنها أدت إلى فتح ملف قضية الوحدة الألمانية من جديد..

إن مسألة الوحدة الألمانية ترتبط بمجموعة من التوازنات الدولية والتى تقوم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والواقع أن دول أوربا الغربية لم تنس بعد دور ألمانيا فى إثارة الحربين العالميتين الأولى والثانية، ويؤكد ذلك تلك الصيحات فى كل من باريس ولندن محذرة من إعادة توحيد ألمانيا، لأن هذا التوحيد سيؤدى إلى مولد عملاق اقتصادى فى قلب أوربا يفوق فى قوته بريطانيا وفرنسا معًا، ويكفى أن نعلم أن مجموع سكان الألمانيتين ٧٨ مليون نسمة،وتبلغ أعداد القوى البشرية العاملة فيهما ٣٧ مليون

نسمة ويبلغ مجموع الدخل القومى فى الدولتين ٨٥٤ مليار جنيه استرلينى سنويا أو ضعف الدخل القومى لأى دولة من دول السوق الأوربية المشتركة.

ولا يمكن - على أية حال - إغفال دور السوفيت بالنسبة لمشروع الوحدة الألمانية، وقد يكون جورباتشوف قد عبر تعبيرا دقيقًا عن الموقف بقوله بأنه يقبل تشكيل حكومة غير شيوعية فى ألمانيا الديمقراطية بشرط أن تبقى عصوا فى حلف وارسو.

إن المتغيرات الدولية المعاصرة تسير بسرعة فلكية تجعل المؤرخين يلهثون وراءها لتعقب جذورها وتحليلها وما كان حلمًا بالأمس أصبح واقعا اليوم، وقد تتحقق الوحدة الألمانية من جديد طبقا لتلك المتغيرات*، وعلى العالم ككل حينئذ أن يعيد ترتيب سياساته واقتصادياته لمواجهة هذا العملاق العسكرى والاقتصادى الجديد.

---

* تمت الوحدة بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الاتحادية فى ٣/١٠/١٩٩٠.. وبذلك تكون توقعات الدكتور جاد طه قد تحققت. دار المعارف